الفصل الأول:

أدوات المعرفة في القرآن الكريم

طرائق المعرفة: هي الوظائف الإدراكيّة والقوى النفسيّة المعرفيّة من عمليّات الإدراك، والأذن هي الأداة والعضو الجسميّ، وظيفتها السمع وهو ما وقر فيها؛ أي هو قوّة مركّبة في عصب الأذن من شأنها أن تدرك الصوت، وهذا ما ورد عند طائفة من العلماء والنظار كالراغب وابن القيّم والكفوي وغيرهم.

لم يرد في القرآن الكريم عن المعرفة بالحواس -كأدوات غالباً- إلا مشاعر الأذن والعين، وحاستيّ السمع والبصر، أمّا اليد واللمس فدلالتها المعرفيّة كانت على أنها مقوّمة للإدراك البصريّ بالكتابة أو المعاينة.

أولاً: وظيفة الحواس وقدرتها المعرفيّة

يقسّم أهلُ الأصول العلمَ إلى اضطراريّ واكتسابيّ؛ فالحواس هي أبواب المعرفة الأولى، والحسّ أوّل مراتب الإدراك؛ وأجمع أكثر أهل التحقيق على أنّ النفس هي المدركة، والحواس نواقل للمعلومات؛ أمّا القول بنسبيّة الحواس وأنها مصدر خطأ، فالبعض يغلو فيه، وبعضهم الآخر لم نفهم تقعيدهم لهذه النسبيّة بجعلها دليل الخطأ وحجّة في عدم بلوغ اليقين بها.

يرى كثير من الباحثين في الفلسفة والفكر بفروعها أنّ الحواس تخطئ ولا تصل إلى اليقين، ويتّبعون في ذلك آراء بعض الفلاسفة القدامى وفلاسفة

المسلمين ومفكريهم وعلمائهم، ومنهم كثير كالغزاليّ، وابن حزم، وغيرهما. واستدلّ بعضهم بخطأ الحواس بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩]. والأدلّة في هذا تتكرّر. فالحواس نسبيّة، والمعرفة (الحسيّة اليقينيّة) هي التي تقدّم شهادة الحسّ مؤكدة قاطعة عندما تتواتر شهادات الحسّ هذه، وتتفّق مع الحواس الأخرىٰ ولا تتعارض مع أصول العقل وقوانينه، ولكن الحواس الخمس لا تستطيع الإحاطة بكلّ شيء، ولو قدّر لأيّ من الناس غير هذه الحاسّة لربما اكتشف أشياء كثيرة مغيّبة عنا. وقد اكتشف العلماء أنّ الفضاء مملوء بالصور التي لا نستطيع مشاهدتها بالنظر المجرّد؛ لعدم وجود قدر من الانسجام والتوافق بين وضعها ووضع أبصارنا، وهذه في السمع كذلك؛ فهناك مستوىٰ يعلو عن مستوىٰ سمعنا، وآخر دونه. قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقّة: ٣٨]

أمّا قول بعضهم إنّ الحواس لا تميّز، بل قولهم عن إمكان المعرفة وصدق الحواس بأنها احتماليّة غير يقينيّة، وقد يكون ما نتيقّنُه خيالاً أو وهماً أو حتىٰ حلم يقظة! ! والبصر والسمع لم يُنْف عنه اليقين في القرآن الكريم إلا في حالة وجود عوائق ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: ١٥]، فهنا كان ذهاب العقل لتعطيل قدرة البصر إمّا لسكر العقل وتخدّره أو بتأثير السحر على الأعين، قال تعالىٰ: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والسمع هنا سمع استجابة، فكلّ ذمّ للحواس في القرآن أو قطع لها عن العلوم إنما هو لمرتبة أعلىٰ من مرتبة

الإدراك الحسيّ العامّ، فكلّها حول الهداية التوفيقيّة التي تكون جزاء من الله تعالىٰ علىٰ ترك الهداية الإرشاديّة بإرادة من الإنسان نفسه، والعقاب بقطعها جزاء علىٰ الإعراض عن الاهتداء بعد السمع والبصر والفهم للحجّة، فتحجب الهداية التوفيقيّة وتبقىٰ الإرشاديّة.

فالله تعالىٰ منح عباده الحواس لينتفعوا بها علىٰ قدر ما منحهم من قدرة ومجال يدركون فيه، وهو مشترك بين المكلّفين جميعهم، ثمّ يقوىٰ من فرد إلىٰ آخر ومن حاسّة إلىٰ أخرىٰ؛ غير أنّ الطاقة البشريّة لا تقتصر علىٰ الحسّ دون غيره طريقاً للمعرفة؛ لأنّ ذلك يدخل في مزالق عدّة، فالله تعالىٰ أثبت الحجيّة علىٰ عباده بأن منحهم ثلاث طرائق وأدوات للمعرفة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. فالقرآن لم يهمل الحواس الإنسانيّة ولم يشكّك فيها مثلما فعلت بعض الفلسفات العقليّة، ولم يرفعها فوق الوسائل الأخرىٰ مثلما فعل التجريبيّون الحسيّون. فالاعتدال في القرآن نحو الحواس لم يدع مجالاً لمشكلة حقيقيّة؛ ذلك أنّ معطيات الحسّ في القرآن هي المادّة الأولىٰ التي تعمل عليها وسائل الإدراك الأخرىٰ.

ثانياً: السمع والبصر في القرآن الكريم

١ - الأذن والسمع في القرآن الكريم:

الأُذن -بالضمّ- هي عضو السمع في الإنسان والحيوان، واللفظ مؤنث، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ

﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أمّا حاسّة السمع فهي أكثر ذكراً في القرآن الكريم؛ حيث ذكرت مائة وتسعاً وثلاثين مرّة. والسمع هو الإحساس الذي به إدراك الأصوات، فهو قوّة الأذن، قد يؤدي إلى الفهم، وربما لا يوصل إليه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وحاسّة السمع لها أهميّة كبيرة؛ لأنها تتلقّى المعلومات بجزئياتها المتغيّرة؛ لذا عُبّر عن الأذن بالإفهام، وعن فعل السماع بالسمع والطاعة.

وللسمع أنواع، هي: سمع الإدراك، وسمع الفهم والعقل، وسمع الإجابة، وسمع القبول والانقياد، و(السمع) لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد، والفعل الواقع بعد المفعول في موضع الحال. والسامع أعمّ لغة من المخاطب؛ إذ الحاضر هو المخاطب الذي يوجَّه إليه الكلام، والسامع يعمّ له ولسائر الحاضرين في المجلس. والسمع يعبّر عنه بأنه قوّة الأذن والأذن أيضاً، وما وقر فيها من شيء. قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ويعبّر عن الفهم والطاعة بالسمع، وكلّ نفي للسمع في القرآن هو نفي للاستجابة لما سمع بالطاعة والانقياد له، وكلّ إثبات هو بمعنى الفهم من ذلك ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: ٣١].

فخصائص السمع الممدوح في القرآن الكريم هي الفهم لما يُلقى، والاستجابة للأوامر، والانتهاء عن الموانع، فإذا تخلّف الفهم أو الطاعة والاستجابة كان النفي للسمع وهذا في حقّ المؤمنين والكافرين. فالإعراض عن الحقّ هو إعراض عمّا سُمع، فيكون في حكم الأصم؛ لذا قال عنه تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]، فهو سمع لكن لم يستجب، فكان في حكم من لم يسمع؛ لأنّ الغاية من الخطاب لم تتحقّق، فاستوىٰ وجوده بعدمه، حال مقابلته بالرفض والعصيان ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فتعطّل السمع إنما يكون لتعطّل محلّ الإدراك، وهو القلب؛ لذا جُمعا في الختم في عدد من الآيات، وأُفرد البصر بالغشاوة والغطاء، بل صرّح بذلك في آيات ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]؛ أي لا يسمعون ما ينفعهم للهداية، بل ما يقيم عليهم الحجّة فقط، فهم يفهمون ويدركون بالسمع ما قيل؛ لكن قلوبهم لا تقتنع وصدورهم لا تنشرح للحقّ، فاستوىٰ السمع والصمم؛ لأن الاستجابة منتفية، وإن كان الإدراك للأصوات وفهم الكلام قائم فالعمل بموجبه متخلّف عنه، وهذا قطع للغاية من الخطاب بالأمر أو النهي، فالمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البرّ والفاجر.

ويقسم السماع إلىٰ سماع الإدراك: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجنّ: ١]؛ وسماع الفهم: المنفي عن أهل الأعراض والغفلة: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [الروم: ٥٢]؛ وسماع القبول والإجابة: كما في الآية ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١]؛ وسماع خاصّة الخاصّة من المقرّبين هو سماع القرآن يتلىٰ بالاعتبارات الثلاثة، إدراكاً وفهماً وتدبّراً و إجابة، وكلّ سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم وأمر به أولياءه فهو هذا السماع، سماع كلام ربّ العالمين، وسماع المواعظ، وكلام الأنبياء والمرسلين.

٢- العين والإبصار في القرآن الكريم:

العين هي الباصرة، وتطلق على الحدقة؛ وقد تطلق العين على مجموع الغلاف وما فيه، كما يراد بها حقيقة الشيء المدركة بالعيان، أو ما يقوم مقام العيان.

ما يهمّنا هو العمليّات المعرفيّة؛ أي العين الجارحة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد: ٨] فمهمّة العين في القرآن هي الرؤية، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، والإبصار، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والمشاهدة، ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ [الأنبياء: ٦١]، وقد وصفت العين بأمور منها: الطمس ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، والقرى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، والمدّ، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] والازدراء، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١]، وفيض الدمع ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢]، والتغطية، ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١]، والدوران، ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، واللذة. ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

واستعمال النظر في القرآن كان بالإرشاد إلى التأمل، فهو تقليب للبصر مع استغراق وقت؛ إذ يقاربه في المعنى الانتظار، فلا يكون النظر بسرعة بل بتمهل؛ لأنّ الغاية من تقليب البصر وتحديق العين الوصول إلى إدراك المنظور إليه لتحصل منه الرؤية. وقد يراد به التأمل والفحص والمعرفة

الحاصلة بعد الفحص؛ وهي الرويَّة. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامّة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصّة. فيقال: نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه، رأيته أم لم أره، ونظرت فيه: إذا رأيته وتدبّرته، ونظرت له: رحمته، وإليه: رأيته، وعليه: غضب عليه، ونظره انتظره. وللنظر أحوال كثيرة، وكيفيّات متنوّعة يصعب حصرها وتفصيليها.

٣- المفاضلة بين السمع والبصر في القرآن الكريم:

أ- التفاضل بين السمع والبصر عند العلماء:

اختلف العلماء في بيان السمع والبصر، أيهما أفضل؟ فبينما يفضّل بعضهم السمع، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣]؛ قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان ذلك دليلاً على أنّ السمع أفضل. يرى آخرون أن البصر أفضل، واحتجوا بأن أفضل النعم هو النظر إلى الله تعالى، وهذا يكون بالبصر. وأن مدرك البصر أتمّ وأكمل، كما أنّ محلّه أحسن وأكمل وأعظم من محلّ السمع؛ وذلك لشرفه وفضله.

ب- الجمع بين السمع والبصر في القرآن الكريم:

ورد السمع والبصر في القرآن منفردين وجمعاً في ستة وثلاثين موضعاً، منها ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، فالحديث عن الحواس كأدوات

للمعرفة كان غالباً عن السمع والبصر مجموعين، لأسباب عدّة، منها: أنهما أداتان من أهمّ أدوات الإدراك التي يترتّب عنها معرفة الله تعالىٰ، وأنهما الطريقان الرئيسيان بين المعرفة والعقل، وأن فقدان الحاستين يُفقد العلم كلّه كلاماً ولغة وقراءة، وأن السمع يدرك خلال الضوء والظلمة، ومع وجود الحواجز الفاصلة بين السامع وغيره؛ إلا أن تكون كاتمة، علىٰ عكس البصر لا يبصر إلا بوجود ضوء ينعكس في العين. كما أنّ النائم أوّل ما يستيقظ منه المنبّه السمعيّ ويليه البصريّ. فكان أوّل الحواس اشتغالاً بعد النوم، وآخرها قبل النوم.

ت- أسباب تقديم السمع علىٰ البصر في القرآن الكريم:

ما يلاحظ في القرآن الكريم أنّ السمع كان دائماً مقدّماً علىٰ البصر في الذكر كلما اقترنا، وهذا الترتيب كان في كتاب الإعجاز اللغويّ والبلاغيّ؛ وهو القرآن، فلا يكون إلا عن سرّ، وهو قاعدة أفضليّة المتقدّم علىٰ اللاحق، خاصّة وأنّ هذا التقديم شمل كلّ المواضع التي اجتمع فيها السمع معَ البصر. وهذه الملاحظة هي إحدىٰ أدلّة القائلين بأفضليّة السمع علىٰ البصر من الناحية المعرفيّة، وهذا يستند إلىٰ دلائل أخرىٰ في القرآن الكريم والواقع، هي: اقترن السمع بالعقل في غير ما آية، من غير اقتران البصر بالعقل، مثل ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، واقترن لفظ السميع بالعليم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٣٠] وأن حاسّة السمع دائمة العمل من غير توقف، بخلاف البصر فتتوقّف بإغماض العين.

أمّا من زاوية معرفيّة خالصة فأفضليّة السمع تكون لأمور منها: أن السمع أهمّ في إقامة الحجّة علىٰ الخلق؛ وأن السمع ينقل المعارف الماضية

والأخبار الآتية، أمّا البصر فينقل الحاضر المعاين، وأن جهات استقبال السمع متعدّدة، بخلاف البصر الذي لا يكون إلا بالمقابلة. وأن حاسّة السمع تشتغل ليلاً نهاراً، في الظلام والنور، أوّل حاسة تستجيب من النائم حاسّة السمع، وإن كان مغمض العينين، وأن فاقد السمع يفقد النطق؛ لعدم القدرة على التلقين وإدراك المخارج والصفات، فيفقد خاصيّة المخاطبة.

ث- أسباب تقديم البصر على السمع في القرآن الكريم:

ورد البصر متقدّماً على السمع في مواضع كان الغالب فيها الذمّ والتعطيل والعقاب. ففي حالات المدح بقدّم السمع، أمّا في ما عاكسها فيقدّم البصر، وهذا لا ينفي أفضليّة السمع بل يثبتها. ومن المواضع التي قدّم فيها البصر على السمع قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومما هو معلوم أن البصر أهمّ للحيوانات من السمع؛ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]؛ فقدمت حاسّة البصر المعطّلة على حاسّة السمع المعطّلة. وجاء تقديم البصر في موقف تعذيبهم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وفي حالة ندم الكفار ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]؛ فالمعاينة بالبصر أقوى من الخبر المنقول، والمشاهدة آكد.

ثالثاً: القلب في القرآن الكريم

بعد أن تكلّمنا عن الحواس نبيّن الجانب المكمّل في التحصيل المعرفيّ كما ورد في القرآن الكريم وهو القلب، الذي ورد بمعانٍ وألفاظ كالفؤاد واللبّ،

فكان في الآيات جميعها التي بيّنت طرائق العلم وتحصيل المعرفة بإثباتها أو نفيها ذكر وسائل المعرفة وهي القلب أو الفؤاد، ثمّ السمع والبصر، مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] فالقلب أداة وظيفتها التعقّل، والأذن وظيفتها السمع، والعين وظيفتها الإبصار. وجمع بين القلب أو الفؤاد وحاستيّ السمع والبصر في قرابة عشرين آية، كلّها تنبئ أنّ القلب أداة داخليّة في الجسم دورها متكامل مع الحواس الخارجيّة، خاصّة السمع والبصر.

١ – مفهوم القلب في القرآن الكريم:

قال أهل اللغة في معناه: هو الفؤاد، والعقل المحض، وخالص كلّ شيء، والتقلّب الحيلة. والقُلَّب: الذي يقلّب الأمور عن عِلْم بها. وسمّيت المضغة الصنوبريّة قلباً؛ لكونها أشرف الأعضاء لما فيها من العقل، وسرعة الخواطر والتلوّن في الأحوال، ولأنها مقلوبة الخلقة، كما يشهد به علم التشريح. ويسمّى عند بعض الفلاسفة: "بالنفس الناطقة، والروح الباطنة، والنفس الحيوانيّة المركّبة، وهي النفس المدركة العالمة من الإنسان والمطالبة والمعاقبة. قال الجرجانيّ: "القلب مصطلح على اللطيفة الربانيّة بالقلب الجسمانيّ الصنوبريّ الشكل المودع من الصدر، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان". أمّا القلب الصنوبريّ فقيل إنه سبع طبقات، هي: الصدر: محلّ الإسلام والوسواس والحفظ والذاكرة. والقلب: وهو محلّ الإيمان والتعقّل والسمع والبصيرة. والشغاف: وهو محلّ محبة الخلق. والفؤاد: وهو محلّ رؤية الحقّ. والسويداء: محلّ العلوم الدينية. ومهجة القلب: محلّ تجلّي الصفات.

وحبة القلب: محلّ محبّة الحقّ.

ويرد القلب في القرآن على معان ثلاثة: العقل وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ والثاني: الرأي والتدبير ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، والثالث: حقيقة القلب الذي هو في الصدر ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. وقد يطلق على القلب عقلاً، مثلما أطلق على الأذن السمع، فسمّيت الجارحة "الأداة" بوظيفتها، وقد تذكر الجارحة والمراد وظيفتها، لأنّه لم يورد الأدوات من الناحية التشريحيّة بل من الناحية الوظيفيّة وفقط. غير أنّ العقل هو أحد القوى الإدراكية لا كلّها، فهناك الفكر والذاكرة والحافظة والفهم.

٢- المصطلحات المرادفة للقلب في القرآن الكريم:

إذا تتبعت الآيات بالقرآن باحثاً عن المفاهيم المعرفيّة وجدت قسمين: أدوات لها وظائف، كالحواس تذكر الأداة الجارحة، ثم تحديد وظيفتها. وقد تذكر الوظيفة من غير أداتها، لأنّ الغاية والمراد الجانب العلميّ والعمليّ؛ لا الجانب الماديّ الجسميّ. كما قد تذكر الوظيفة بذكر الأداة فقط، من غير التصريح بعملها، كناية عن الوظيفة؛ وهذا يجليه السياق، وذلك لتضمّنها لها، وبيان الغاية من الأداة. فالمراد "العقل" من القلب بالسياق، وهو الذكرى وفهم الوحي، وهذا لا يكون إلا بالقوّة العلميّة بالقلب؛ أي قوّة العقل وهي التعقّل.

ونحاول فيما يأتي جمع الأدوات التي نسب لها بعض وظائف القلب الإدراكية، مما يفهم من ذلك أنّها مرادفة له؛ لا شيء خارج عنه. وذاك لأنّ

القرآن حصر أدوات تحصيل المعرفة في ثلاث لا رابع لها، وهي القلب والأذن والعين.

أ- الفؤاد:

الفؤاد عند أهل اللغة هو الحُمّى وشدّة الحرارة. والفؤاد القلب، سمّي بذلك لحرارته وتوقُّده. وقيل هو غشاء القلب، وقيل: باطن القلب، والقلب حبّته وسويداه. والفؤاد الرقيق تسرع إمالته، والفؤاد الغليظ كالقلب القاسي لا ينفعل لشيء. وإطلاقه كان على المعنوي؛ لا على الجارحة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال ابن عاشور: الأفئدة: جمع الفؤاد؛ وأصله القلب، ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا. غير أنّ "الفؤاد" ورد بوصفه مفهوم طاقة، أو ملكة، وبالأحرى وظيفة معرفيّة إدراكيّة، إذ نجده يقرن مع وظيفة السمع والبصر؛ أي مع قوى الإدراك لا مع وسائلها. فقوى تحصيل المعرفة هي السمع والبصر والفؤاد، غير أنّه لم ترد آية واحدة في سياق الامتنان؛ جمعت فيها الحواس مع القلب، بل كان الجمع معه في مقام الذمّ دائماً؛ إمّا بالإنكار أو التحقير أو إقفال طرق العلم بالطبع أو الختم أو الغشاوة.

وباستقراء آيات الفؤاد في القرآن ومقارنتها مع آيات القلب نلاحظ ما يأتي: اختصاصه بالرؤية ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، واختصاص الفؤاد بالكذب، بينما وصف القلب بالزيغ والإنكار والظنّ والعمى والنفاق. ووصف الفؤاد بالفراغ والهواء: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن

كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠]؛ وفي معنى الفراغ أقوال؛ غير أنّ كلّها تدلّ على أنّ سبب الفراغ الخوف. قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣]. نجد أن الفؤاد قد وصف بالهوى والصغو، ووصف بالتثبّت: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]؛ ووصف الفؤاد والقلب معاً بالتقلّب: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فمع أنّ كليهما وصف بالتقليب غير أنّ الفؤاد كان تقلباً لقوى الإدراك، أمّا القلب فكان لقوى الإرادة؛ أي إنّ تقلّب الفؤاد معرفيّ، أمّا القلب فوجدانيّ ومشاعريّ.

فقوى الإدراك ثلاث: السمع والبصر والفؤاد، وكلّها من شأن النفس المدركة بالقلب، وهذا ما لم نجد فيه خلافاً يقوم معه، لذا قال الغزاليّ: اعلم أن محلّ العلم هو القلب. نفهم من هذا أنّ القوى المدركة بالفؤاد، وقوّة السمع وقوّة البصر المدركة بالقلب، فالأذن ناقلة للأصوات، والعين للصوّر، والفؤاد هو المدرك لها والفاهم والمفكّر.

فأوّل مراتب العلم هو الشعور وهو إدراك من غير إثبات، فكأنّه إدراك متزلزل: يكون قبله الإحساس وهو إدراك الشيء مكتنفاً بالعوارض الغريبة واللواحق الماديّة، مع حضور المادّة ونسبة خاصّة بينها وبين المدرك. والإحساس للحوّاس الظاهرة، أمّا الإدراك فللقلب أو العقل أو اللطيفة الروحانيّة النفسيّة. وقد صرّح المحقّقون بأنّ القوى الجسمانيّة آلات للإحساس؛ والمدرك هو النفس. ففعل القلب المعرفيّ الإدراكيّ يبتدئ من حيث ينتهي الحسّ لذا قيل" بداية العقول نهاية المحسوسات."

ب- اللب:

وهو العقل الخالص من الشوائب، وقيل ما ذكا من العقل، فكل لب عقل ولا عكس. ولهذا علّق الله الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الذكيّة؛ بأولي الألباب. واللب هو القلب الخالص، وخالص القلب، ويكنى به عن العقل، لأنه خالص القلب والخطاب موجّه له. واللبيب العاقل، وألب به لبًّا، إذا أقام به، والملبوب: الموصوف بالعقل. فأصل اللُب من أَلَبَّ، وهو كاللَّب -بالفتح- بمعنى الملازم، وبالضمّ بمعنى الخالص من كل شيء. وهو قلب كل شيء وعقله.

ورد لفظ اللب في القرآن الكريم في صيغة الجمع المضاف لِاسم الإشارة؛ دلالة على الاختصاص والاستحقاق؛ مثل ذاك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]؛ أي صاحب علم، وهذا أرفع من لفظ "عالم"؛ لاختصاصه بالعلم دون غيره. وفي ورود اللب بصيغة الجمع نكتة بلاغية – ذكرت في الفصل الأول- فائدتها انتفاء الثقل في النطق.

باستقراء آيات اللب في القرآن نلاحظ تخصيصه بأمور منها: منح أولى الألباب صفات خاصّة بهم دون غيرهم، وأخرى شرط في انتسابهم لهذه الخاصيّة، منها الإيمان والهداية، والتقوى والعلم، والتفّكر في خلق الله تعالى، والتدّبر في وحيه. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر: ٥٤]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠]. ويمثّل اللب خالص القلب، بل خالص العقل، والتذكّر أعلى من الفقه، والتعقّل، والرؤيّة، ومن التفكّر، لذا نجد في

آية القصاص ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فكان لا بدّ من طرح سؤال: كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف؟ لأجل دفع هذا السؤال؛ ذكر عقب بيان أحكام القصاص؛ حكمة تشريعه؛ وهي ضمان بقاء الحياة للذين يقيمون حدود الله، وهذه ما يعقلها إلا أولو الألباب؛ لإبصارهم العواقب من تجاربهم في الدنيا، وفهمهم لسلوك الناس وعادات مجتمعاتهم، ويعلمون أثر الخوف من العقاب، والردع الناتج من ذاك.

فيكون بذلك أولو الألباب هم خلاصة ذوي العقول، فهم من يستحضرون العلوم بعد التفكّر والتبصّر فيها وحفظها؛ فيتجلّى لهم ما لا يطّلع عليه غيرهم. وأولو الألباب هم خاصّة عباد الرحمن الذين أقبلوا على طاعته، وتزوّدوا بالتقوى، وآمنوا وعلموا، ثمّ تفكّروا وتدبّروا، فخصّهم الرحمن بإدراك أسرار التشريع، وحِكم الأحكام دون غيرهم؛ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. فهم ذوو الحكمة والرسوخ في العلم، لذا أناط بهم خاصيّة التذكّر؛ لأنّهم اختّصوا دون غيرهم باللب، وإذا قيل أنّ اللب هو العقل؛ فهنا إشكال وهو: إذا كان لا يصّح الخطاب إلا للعقلاء فما الفائدة في قوله "أولي الألباب"؟ هنا يعلم أنّ اللب هو العقل الخالص من الشوائب، وليس كلّ صاحب عقل صاحب لب. كما أنّ الخطاب في الآية كان المراد منه التنبيه على أولي الألباب بأنّهم تلحقهم لمكانتهم العلميّة تبعة المحاسبة والرقابة، فهم أعلم الناس بمراد الله تعالى؛ فكان لا بدّ لهم أن يكونوا أسبق الناس عملاً بذاك العلم، وإعراضهم أقبح من إعراض غيرهم؛ لعظم الحجّة القائمة عليهم مقارنة بغيرهم.

ت- الأبصار:

وهي البصيرة، وقد وردت بصيغة الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]؛ قال الراغب: يقال لقوّة القلب المدركة بصيرة، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة، وقلما يقال بَصُرت في الحاسة إذا لم تضامه رؤية القلب. ولأنّ البصيرة كانت بمعنىٰ قوىٰ الإدراك نجد تفسيرها لا يتجاوز ذلك، قال الطبريّ في معنىٰ "لأولي الأبصار"، ممن له فهم وعقل. والبصيرة وظيفتها التبصّر، وهذه درجة قبل التذكّر؛ فهي نور في القلب يبصر به، فيقوم في قلبه شواهد الحقّ، ويرىٰ حقيقة ما يبلغه ويخبر به عن طريق الرسل، فالبصيرة ما خلّصك من الحيرة إمّا بإيمان أو عيان. والبصيرة خصّت بالعبرة، وخصّ اللب بالتذكّر. وهي نور في القلب لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ث- الصدر:

وهو أعلىٰ ومقدَّم كل شيء وأوّله، حتىٰ إنّهم يقولون: صدر النهار والليل، وصدر الشتاء والصيف. والصدر من الإنسان والحيوان ما دون العنق إلىٰ فضاء الجوف، وعند الأطباء: قفص عظميّ غضروفيّ يتضمن الآلات الرئيسيّة للتنفس والدورة. وقد ورد الصدر في القرآن الكريم أربعاً وأربعين مرة، نسبت له فيها أفعال وصفات يكتسبها؛ دلّت علىٰ أنّ له دوراً في الجانب المعرفيّ، وأنّه ذو علاقة مع القلب مركز الإدراك. بل بعض الصفات التي نسبت للصدر هي من صفات القلب، فالصدر حاوٍ للقلب، والقلب

حاوٍ للفؤاد، والفؤاد حاوٍ للُّب، "فالصدر بالنسبة إلى القلب بمنزلة بياض العين في العين، ومثل صحن الدار في الدار، ومثل الذي يحوط بمكة.. فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات كما يعيب بياض العين آفة البثور وسائر علل الرمد." وهو موضع الشهوات، والحاجات، والأماني، وولاية النفس الأمّارة بالسوء، والوساوس، وهو موضع الإسلام، وحفظ العلم المسموع؛ من أحكام وأخبار.

ومن صفات الصدر في القرآن ما يأتي: الانشراح: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]، والإسلام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والكفر: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦] والضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] والحرج: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] وأنّه حاوٍ للقلب ولكل ما عُلم وللآيات والأخبار، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، فنجد قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥]. فالعلن والجهر معلوم للكلّ بالسمع، لكنّ الله استوى عنده السر والجهر ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣] هذا سواء عند الله لأنّه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣]، فالتحدّي قائم حول ما أُسرَّ لا ما جهر به؛ لأنّه متمكّن منه للكلّ.

ووصف الصدر كذلك بأنّه محلّ الوساوس: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥] وأنه محل الحوائج: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [غافر: ٨٠]، ووصف كذلك بالكبر والغل: ﴿إِن فِى

صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] ووصف بالابتلاء: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤] ووصف بمثل ذلك الصدر بالتحصيل ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠]؛ ووصف بالرهبة: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]؛ وبالشفاء: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] وخلاصة ذلك أنّ الصدر يحوط بالقلب، والذي يدخل فيه قلَّما يشعر به في حينه، وهو موضع نور الإسلام، وموضع حفظ العلم المسموع؛ من أحكام وأخبار، وموضع دخول الغلّ، والشهوات والمُنى، والحاجات، وهو يضيق حرجاً أحياناً؛ وينتشر أحياناً أخرى، وهو موضع ولاية النفس الأمّارة بالسوء، ودخول الوساوس وآفات الخواطر، وسمّي الصدر صدراً لأنّه صدر القلب وأوّله ومقدّمته، ولأنّ منه تصدر الحوائج والوساوس والخواطر نحو القلب، وهو مستقرّها والمتدبّر لها والمتفكّر فيها.

٣- أعمال القلب وأحواله في القرآن الكريم:

وظائف القلب على بابين: الأول: العلوم والتصوّرات، وهو العمليّات المعرفيّة؛ من فكر وتدبّر وتذكّر، ومعلومات سابقة، وناتجة متحصلة منها. والثاني من وظائف القلب فهو باب الإرادات والعزوم، وهذا بالتعلق والميل إلى أمور، والابتعاد والنفور من أمور أخرى. وذا الباب درجات؛ أولها الميل ثمّ العلاقة ثمّ الإرادة ويرتقي في درجات التعلق حتى يصل إلى العبودية. وعن الإرادة ينتج العزم، وهو قرار العمل قلبياً باستخدام الجوارح، فإن لم تعمل الجوارح كان

التمّني والتشّهي. فإن استحكمت الإرادة صارت عزماً، ويتولّد عن العزم الفعل. بهذا تبيّن الفرق بين العقل وهو باب التصوّرات والعلوم، وبين العاطفة وهي باب الإرادات والعزوم وما يشملها من تمنٍ وشهوات وأهواء.

في القرآن صفات كثيرة ذكرت للقلب؛ من أفعال يقوم بها، وخصائص تجعل منه عالما قائماً بذاته، واتسعت معانيه وتعددت جوانبه، وكلها صور من العقل، أو العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانيّة، وأحياناً تجمع الجانبين العقليّ والعاطفيّ ويزيد عليهما عمقاً وبعداً آخر.

- باب الإدراك:

وهذا يشمل التصوّرات والمفهومات، والقابليّة للمعرفة والعلم، وتدبير الصناعات الخفيّة الفكريّة والعلوم المستفادة من التجارب، والتمييز والحفظ والتذكر والإنتاج للمعلومات.

- باب الإرادة:

وفيه الطباع؛ من شهوات ووجدان ورغبات ومعنويات وميولات، وهي قائمة على الطلب والترك؛ الحبّ والبغض، والقرب والنفرة، وما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. والإرادات والعزوم هي ما يحصل بعد الخواطر والتفكّر، ويكون بعدها اليقين والإيمان والاعتقاد والطمأنينة.

وفي القرآن وردت صفات للقلب خاصّة به، منها ما كانت منه، ومنها ما كانت واقعة عليه. فبعض الصفات تكون من أفعاله كالخوف والوجل، وأخرى يتعرض لها كالإقفال والربط والتمحيص له، وقذف الرعب فيه.

هناك صفات إدراكيّة معرفيّة: وهي كثيرة جداً، منها: الهداية، والفقه، والزيغ، والعقل، والعمى، والتدبر، والإنكار، والعلم، والظن، وصفات إرادية معنوية وعملية، منها: الغلظة، والسلامة، والإنابة، والإثم، والاطمئنان، والطمع، والتقوى، والتقلب، والاشمئزاز، والسكينة، والرأفة، والوجف، والصغو، والقسوة، والكسب، والتعمد، والطهر، والحب، والغلف، والغل، والشرب، والحسرة، والوجل، والتآلف، والإباء، والغيظ، والنفاق، والريبة، واللهو، والإخبات، والرعب، واللين، والحمية، والخشوع. وهناك صفات مقترنة بالقلب الواقع عليه وهي أفعال الله في القلوب: منها: الطبع، والإنزال، والختم، والحول، والربط، والإلقاء، والسلوك، والإقفال، والتأليف، والتمحيص، والتزيين، والتطهير، والتقطيع، والصرف، والشد، والقذف، والكتابة، والران.

ويمكن تمييز الوظائف بتقسيمها إلى قوتين رئيستين: الأولى هي القوّة العلميّة: وهي قوّة الإدراك، والتمييز، وقبول العلم، وتخزينه وحفظه واستذكاره، وترتيبه والاستنباط منه. والثانية للقلب فهي القوّة العمليّة: وهي قوّة الإرادة والعزم والحب والإيمان، وهذه تمثل أعمال القلب وما يكسب بها من حسنات أو سيئات، وأحواله الوجدانيّة من ألم وحسرة ومرض وبغض وغل، ومن صحة وفرح وحب، وهذه الأمور ناتجة عن العلائق والخواطر والطباع التي فطر عليها.

ولا بدّ لحياة الإنسان من أمرين، أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب؛ الذي ينتفع به ويلتذ بإدراكه. والثاني: معين دافع له عنه، فهذه

أربعة أشياء: أمر هو محبوب مطلوب الوجود. وأمر مكروه مطلوب العدم. والوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب. والوسيلة إلى دفع المكروه. فتكون الإرادة خاضعة لما سبقها من شهوات، وطباع جُبِل الإنسان عليها، وإدراكات كانت حاصلة بالتصوّر المنقول من الحس، ثمّ يترقى التصوّر؛ من الحس إلى الشعور إلى الإدراك، حتى يصل إلى العقل وهو القوّة الحاكمة؛ التي تفصل بين الشهوات والطباع والإرادات، فإمّا أن تقرر المنع والحبس؛ أو أن توافق الإرادات، فيكون العزم، فيصدر الأمر للأعضاء بالتنفيذ، فإن توفرت القدرة تمكّن الإنسان من تحقيق مراده، فالفعل الإنساني قائم على ركائز ثلاث هي: الإرادة، والإدراك، والقدرة. وبصيغة منطقية: ماذا يفعل؟ وكيف يفعل؟ وهل يمكن الفعل؟

٤ - أهمية القلب معرفيّاً في القرآن الكريم:

خلق الله القلب وجعله محلاً لمعرفته وإرادته، فهو "عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته"، وللقلب علائق من ملاذ الدنيا، وطباع جُبِل عليها، كما له إرادة وعلوم، ومبدأ كل علمٍ وعمل فيه؛ هو الأفكار، فإنّها توجب التصوّرات، وتدعو التصوّرات إلى الإرادات، وتقتضي الإرادات الفعل، ويولّد التكرار العادة، ومعلوم أنّ الإنسان لا يملك وقف الخواطر، ولا طاقة له بإماتتها، فهي تهجم هجوم النَفَس، إلا أنّه منح قوّة الإيمان والعقل؛ ليستعين بذلك على قبول أحسنها، والرضى به والسكون إليه، وعلى دفع القبيح وكراهته والنفرة منه.

فشرف القلب من شرف ما فيه، وما أنيط به من مسؤوليات، و"هو أعظم الأشياء الموصوفة بالسعة من جانب الحقّ، ومعدن الروح الحيوانيّ المتعلّق للنفس الإنسانيّ، ومنبع الشعب المنبثة في أقطار البدن الإنسانيّ، بل في سائر الحيوانات التامّة الخلقة، ومنه تصل الحياة والفيض إلى الأعضاء على السوية بمقتضى العدل، وله إيفاء كل ذي حقّ حقّه."